سنوات الجحيم

أوراق مراسل
صحفي بالعراق

الفصل الرابع

ضد الخوف

obeikan.com

obeikan.com

١ - العلم

عندما تعبر بوابة تكريت التى تبعد عن بغداد حوالى ١٧٥ كم شمالا تصل الى قرية العوجة مسقط رأس صدام حسين التى ظلت على علاقة طيبة مع عشائر الجبور سكان ناحية العلم الأساسيين رغم محاولة تورط فيها بعضهم لاغتيال صدام عام ١٩٩١ .. وبنظرة على بيوت تلك القرية تبدد كل ما كان يقال عن أن صدام حسين منح أقاربه امتيازات وأموال على حساب العراقيين .. بيوتها شديدة البساطة حتى أن بعضها لم يكسى بالمحارة وبقى على حال الطوب الاحمر .، شوارعها كبقية شوارع العراق من حيث كمية الحفر والمطبات وفوضى الارصفة .، ندخل إلى مدينة تكريت عاصمة محافظة صلاح الدين التى يبدو شارعها الرئيسى نظيفا تتوزع على جانبية دوائر الدولة الرئيسية بالمحافظة بعد اجتياز أرصفتها المنسقة .، هدوء ملحوظ جعل المدينة تبدو مستريحة على حافة السكون تعيش فى سلام وهدوء كأنها لم تعش حالة الحرب كباقى مدن العراق .. كما بدت على أحد جانبى الطريق بوابة قصر الفاروق وبدت خلفها القصور الرئاسية التى تحدث العالم عنها كثيراً بلونها الصحراوى الباهت وغلافها الحجرى والصخرى المنقول من شمال العراق والمصفوف بعناية فوق أسطحها وواجهاتها .

فى منتصف مدينة تكريت طريق يؤدى الى الجسر الوحيد فى المدينة الذى يخترق القصور الرئاسية وصولا إلى ناحية العلم وهى مقصدنا عبر نهر دجلة .

يبدو الطريق الى ناحية العلم مختلفا عن غالبية مناطق العراق .. بصمة نهر دجلة الذى تغفو عليه الناحية كانت واضحة على الطريق ذى الخمسة عشر كيلومتراً بين مركز المحافظة / تكريت/ ومركز ناحية العلم .

الغطاء النباتى الكثيف من مختلف أشجار الفاكهة فضلا على مزارع القمح والشعير والمحاصيل الصيفية كانت تغطى كل شبر من أرض المنطقة .. لم يبق سوى الشارع وبيوت المواطنين والتى زرعت حدائقها هى الأخرى بالعشب الأخضر وزينت بمختلف أنواع الزهور .. أجواء ناحية العلم مختلفة تماما عن غيرها حتى من المناطق القريبة .. احتضانها لدجلة وانخفاض مستوى الأرض وارتفاع الرطوبة فيها جعل أجواءها أكثر اعتدالا تقترب من أجواء بلاد الشام وتبتعد قليلا عن أجواء العراق القائظة الملتهبة .

تستقبلك بساتين الفاكهة المنتشرة على جانبى الطريق مع مظاهر لريف يتميز بالرقى تخترق طرقه سيارات فارهة لتصل إلى بيوت أراد سكانها أن تكون ذات طراز

معمارى بسيط يضم .. المضيف والحديقة وسكن الاهل مع توفير كل مقومات الرفاهية مع وضع معضلة الكهرباء فى الحسبان فلا بيت يخلو من مولد .. لا بيت يخلو من استاذ جامعى أو معلم أو طبيب أو مسئول فى أحد دوائر الدولة .. وكيف لا وهذه الناحية شهدت تأسيس أول مدرسة ابتدائية فى الريف العراقى عام ١٩٣٣ هى مدرسة الخرجة الابتدائية على يد الشيخ محمد الحسن جبارة شيخ عشيرة الجبور فى هذه المنطقة .

تواجهك من الضفة الأخرى لنهر دجلة جامعة تكريت التى تضم فى جنباتها أكبر نسبة من الأساتذة من هذه المنطقة بدءا من رئيس الجامعة الدكتور على صالح حسين الجبورى وليس انتهاءا بعدد من عمداء كلياتها السبعة عشر ومئات الأساتذة والطلبة .. العمق العلمى لهذه المنطقة والذى يصل إلى قرن كامل عززه فى العام ١٩٩١ قرار الرئيس الراحل صدام حسين بطرد أبنائها من الجيش والدوائر الأمنية بسبب المؤامرة آنفة الذكر مما جعل توجه أبنائها حتميا لمقاعد العلم والدراسة مما أنتج ما يقرب من ٥٠٠ شهادة عليا فيها .

يحد ناحية العلم من الشرق سلسلة جبال حمرين والتى تفصلها عن محافظة كركوك وهى أحد أهم مناطق نفوذ المجموعات المسلحة خاصة تلك المرتبطة بالقاعدة والتى زاد تمركزها فى تلك المنطقة الجبلية الصحراوية بعد فقد ملاذاتها الآمنة فى المدن والمجتماعات السنية على أيدى رجال العشائر والصحوات .

وتمتاز ناحية العلم بخصوبة أراضيها الصالحة لزراعة القمح والشعير والتى تروى بواسطة الآبار مما يجعلها فرصة استثمارية لمن يريد ..كما يوجد على أراضيها حقل عجيل النفطى الذى يضم فى باطنه ثلاثة مليارات برميل من الاحتياطى المؤكد وهو ما يجعلها من أغنى مناطق العراق المنسية .

يقيم فى الناحية ٤٤ ألف نسمة يتوزعون بين عشائر عدة أكبرها الجبور ثم العبيد والعزة والبوعجيل وجميلة .

وبرغم رفض أهالى الناحية لكل النشاطات المسلحة وكافة المجموعات التى تمارس العنف فانها لم تشهد أى أعمال عنف سوى انفجار سيارة مفخخة وكانت حادثا بسيطا لم ينجم عنه الكثير من الخسائر المادية والبشرية بسبب تكاتف أبنائها وتشخيصهم لكل تصرف مريب وشخص غريب يمكن أن يدخل إلى منطقتهم وهو ما جعلهم هدفا للقتل أينما وجدوا خارج منطقتهم الآمنة وهى ضريبة قاسية وثمنا باهظا دفعه أبناء الناحية بسبب رفضهم للفكر المتطرف حيث جرى اختطاف وقتل أكثر من ١٠٠ من أبناء الناحية خلال الفترة من ٢٠٠٤ وحتى

٢٠٠٩ معظمهم من رجال الأمن .

٢ - الناجى لم يدفن بعد!!!

في العام ١٩٠٢ انتقل الشيخ محمد الحسن الجبارة من الضلوعية بعد صراع مشيخه مع أخواله (السلامة) شيوخ الضلوعية وهم عمود الجبور في الضلوعية آنذاك وسكن في منطقة (الخرجة) ناحية العلم حاليا وسميت بالخرجة حسب إحدى الروايات بأنها أول منطقه خرجت عن مجرى النهر ورواية أخرى بأنها سميت بالخرجة نسبة إلى أنها أول منطقه رفع بها علم الخراج للدولة العثمانيه.

قام الشيخ محمد الحسن الجبارة باستقدام أقاربه من مناطق الهارونية في ديالى وهم(الكلش) ومن الخرنينة قرب بيجي(الشحيل) ومن الضلوعية (الإبراهيم) وانتقل (الحبيب) من الحويجه الماحوز واجتمعوا في بيوت من الشعر ثم استوطنوا قرب نهر دجله.. وفي العام ١٩٢١وقع محمد الحسن الجبارة والشيخ محمود الملا عبد وثيقة تؤيد موافقتهم على تنصيب الملك فيصل ملكا على العراق وهو ما يدل على أن العشيرة لها ثقل ودور كبير في الحياة الاجتماعية والسياسية.

في العام١٩٣٣ بنى محمد الحسن أول مدرسه في أرياف تكريت وهي ثاني مدرسه على مستوى الأرياف العراقية وبذلك فتح باب العلم والمعرفة والثقافة أمام أبناء عشيرته والعشائر المجاورة له وقد لمس أبناء عشيرة الجبور الفرق الآن وتحققت نبوءة شيخهم الذي أبناء عشيرته سيكون لهم شان في العراق .

توفي محمد الحسن الجبارة ١٩٣٧/٥/٢٥وأصبح بعده ابنه الشيخ حسين الجبارة الملقب حسين كبير حيث كان في العائلة اثنان من أبنائها باسم حسين سمي احدهم حسين صغير والآخر حسين كبير الذي بنى أول مسجد في المنطقة في بدايات الأربعينيات وكان له دور فى إيصال أبناء عشيرته إلى مراكز مهمة وكان له صديق من تكريت اسمه (أحمد ناجي) اسم مركب وقد تدرج ليصبح أول معلم في المدرسة وقد سمى الشيخ حسين كبير ابنه البكر أحمد ناجي على اسم المعلم الأول في المدرسة توفي حسين كبير عام ١٩٥٩ بعد إصابته بمرض السرطان في الحنجرة.

وتولى أمور العشيرة الشيخ احمد ناجي (ناجي الجبارة) الذي توفي والده وهو شاب يافع وعندما كانت الحياة صعبه في العراق آنذاك فقد عمل في مجال الزراعة والسواقة وأعمال أخرى من أجل توفير معيشة له ولأخوته وبقى ناجي الجبارة متمسكا بعشيرته وعشيرته متمسكة به حتى جاء احتلال العراق عام ٢٠٠٣ والذي كان له شان

في قيادة دفة الحكومة المحلية في صلاح الدين التي تعتبر من أهم المحافظات العراقية لأنها كانت معقل النظام السابق الذي قاد العراق لمدة ٣٥ سنه .

ولد احمد ناجى حسين محمد حسن جبارة عام ١٩٣٧ واستلم زمام العشيرة مبكرا بعد وفاة والده عام ١٩٥٩ واستمر فى قيادة العشيرة حتى غزو العراق عام ٢٠٠٣ حيث قاد المفاوضات مع قوات الاحتلال للحفاظ على المحافظة وأسس أول مجلس لقيادة المحافظة بعد أن قاد معركة للدفاع عن مدينة تكريت مع ميليشيات كردية جاءت للانتقام من أقارب صدام حسين فى تكريت وخاصة العوجة حيث أرادوا حرقهما ونهب المنطقة .. ورغم الخلافات بين عشيرة الجبور وصدام حسين إلا أن القضية كانت مبدئية فهذه بلد وهؤلاء أهلها ويجب الدفاع عنها ومن جاء يريد الثأر وكان لابد من المرور عبر أراضى الجبور والبوعجيل ورفض الشيخ إلا على جثث الأبطال .. ودارت المعارك ثلاثة أيام اندحرت على أثرها الميليشيات وعادت خائبة وهو موقف بطولى لم ينساه أهالى المحافظة للشيخ وعشيرته لأنهم باتوا الأقوى والأقدر على الحماية والإدارة ومن هنا جاءت مسألة توليهم أمر البلاد والعباد وتم تكوين مجلس لإدارة شئون المحافظة مؤلف من عدد من شيوخ العشائر برئاسة الشيخ ناجى

واستمر هذا المجلس حتى يوم السابع من مايو ٢٠٠٣ حيث جرى تعيين محافظ هو اللواء الركن حسين جبارة الذى كان ضابطا فى الجيش السابق وفى هذه الفترة استطاع أن يعطى رواتب للموظفين وإعادة تشغيل كافة الخدمات الأساسية إلى أن شكل الشيخ أول مجلس حكم للمحافظة بعد تشكيل مجلس الحكم المركزي واستمر لمدة عام حتى أجبر من قبل الأمريكان على الاستقالة بسبب شعبيتهم وخدمتهم للبلد .

ورغم ما لاقى أهل وعشائر الجبور من البعث وصدام حسين إلا أن الشيخ ناجى بسمة التسامح التى سبغت ذلك المكان وأهله أصدر تعميما بعدم طرد أى بعثى أو منع راتبه خلاف ما جرى فى باقى مناطق العراق والعمليات الانتقامية التى جرت ضد البعثيين وعناصر الجيش السابق الذين كان معظمهم مجرد موظفين ومنفذى أوامر .

بعد ترك منصبه أسس الشيخ ناجى مجلس شيوخ عشائر صلاح الدين والذى كان يمثل كل عشائر المحافظة وساهم فى جمع شمل العشائر وساهم فى تذويب الجليد وحل الخلافات بين مكونات المجتمع العراقى فى صلاح الدين الذى يعتبر أحد أكبر المجتمعات القبلية الذى تحتل فيه العشيرة المكانة الأكبر .

بعد أن سيطرت القاعدة على مناطق السنة باعتبارها الحاضنة لهم لترويجهم لفكرة الجهاد ضد الاحتلال كان الشيخ ناجى رغم محاربة الاحتلال له أحد

المستهدفين باعتباره تعامل مع من كان يعتبرهم التنظيم قوات صليبية محتلة وخاصة مع وجود مخطط تدعمه أجندات خارجية لتدمير المجتمع السنى وتغييب السنة عن أماكن الحكم ومؤسساته بدعوى التعامل مع الاحتلال

فى الثامن من يناير ٢٠٠٧ وفى طريق عودته من الديار المقدسة بعد أداء فريضة الحج قامت مجموعة من المسلحين التابعين لتنظيم القاعدة باختطافه فى طريق سامراء الفلوجه وهو أحد طرق الموت المعروفة وهو الطريق الذى شهد نهاية أكبر قائدين بالقاعدة وهما أبو عمر البغدادى وأبو أيوب المصرى / طريق السدة .

ويروى مروان الناجى كيف جرت عملية الاختطاف التى تصادفت مع تأخر عودته ليوم واحد بسبب تعطل إحدى السيارات التى تقل الحاجات من النساء فى طريق الرمادى مركز محافظة الأنبار التى تبعد حوالى ١١٠ كم غربى بغداد وكان من المفترض أن فوجا من الشرطة يؤمن ذلك الطريق الذى كان خاضعا لنفوذ القاعدة بالكامل وتبين أن الفوج لم يؤد الواجب المطلوب منه .. وقبل أن يصلوا تقاطع سامراء – الفلوجة بحوالى ١٥ كم أوقفتهم ٣ سيارات تقل مسلحين تابعين للقاعدة وصعد الملثمون وسألوا عن حسن زين العابدين وهو تركمانى شيعى ويشغل منصب مدير عام الصحة بمحافظة صلاح الدين وهم يفتشون فى جوازات السفر بحثا عن شخص آخر مستهدف دون تسميته وتعرفوا على الشيخ ناجى وأمروه بالنزول من السيارة تحت تهديد السلاح واقتادوه إلى جهة مجهولة تبين فيما بعد أنها منطقة الضلوعية .. وبعد الحادث بحوالى ساعة تلقى مروان الخبر الذى دخل إلى حمد حمود القيسى محافظ صلاح الدين وروى الموضوع وتم إجراء مجموعة اتصالات مع الشرطة والشيوخ والأهل وتم تأهيل قوة كبيرة لتفتيش كل المنطقة إلا أن فارق الوقت ومرور ٣ ساعات تقريبا أدى إلى ضياع أثر الشيخ .

وجرت عمليات بحث واسعة النطاق فى كل مكان .. وجرى الاتصال بالمجموعة المنفذه من خلال وسطاء وفروا قرصا مدمجا / سى دى/ للشيخ وهو يتحدث عن شروط الخاطفين وهى شروط لا يمكن تنفيذها ومنها استقالة الجيش والشرطة فى أربعة محافظات وتسليم أسلحتهم للقاعدة ومبايعة شيوخ صلاح الدين والأنبار وكركوك والموصل للتنظيم وأميره أبو عمر البغدادى وبالطبع تم رفض الشروط التعجيزية المهينة فانقطعت الأخبار الخاصة بالشيخ .

وكانت صحوة صلاح الدين قد تشكلت بتاريخ ١٣ يونيو ٢٠٠٧ فى قرية السلام غرب بيجى من قبل الشيخ معاوية الناجى ابن الشيخ وبدأت تأخذ دورها فى قتال القاعدة والمجموعات المسلحة .. وتمكنت من اعتقال عدد كبير منهم بينهم عناصر

شاركت فى اختطاف الشيخ مثل عدنان خليل فرج وخالد الحبيب وعلى يوسف لجى الذى لقى مصرعه خلال القبض عليه فى منطقة الثرثار إلا أن العمليات العسكرية ضد المسلحين جعلتهم يحولون الشيخ إلى منطقة جلام سامراء ومن هناك جرى تسليمه إلى المقاتلين العرب الذين كانوا يقودون التنظيم فى تلك المناطق وتمت تصفيته هناك ودفنه فى أحد المناطق غير المعلومة حتى الآن مثل كثيرين غيره لم يعثر لهم على أثر .

ونصل للسؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو :

لماذا لم تتمكن القاعدة من العمل فى العلم وأخذها كملاذ آمن مثل معظم المناطق المحيطة ؟؟

يروى أبو عمر وهو أحد أبناء المنطقة أن السبب الرئيسى فى ذلك هو توحد المؤسسة الدينية ذات التوجه السلفى الرافض للفكر التكفيرى مع السلطة العشائرية التى تهدف أساسا إلى حماية أبناء العشيرة من أى خطر خارجى أو مشكلة داخلية .. كان يمثل الاتجاه السلفى فى العلم الشيخ أبو منار العلمى الذى رفض الفكر التكفيرى / فكر القاعدة/ جملة وتفصيلا وحذر منذ وقت مبكر من مخاطر وصول هذا الفكر إلى الشباب لما له من توجهات تستبيح الدماء دون مسوغ شرعى أو قانونى أو أخلاقى وكان العلمى شيخ شيوخ الدعاة السلفية وتعرض للسجن فى زمن صدام حسين وقطعت قدمه وأصيب بالسرطان أثناء سجنه .. فيما كان يقود السلطة العشائرية فى المنطقة الشيخ ناجى جبارة الذى يحظى باحترام كبير من مختلف العشائر ليس فى تكريت فقط وإنما فى جميع أنحاء محافظة صلاح الدين .. وهنا حصل اللقاء بين السلطتين الدينية والعشائرية بهدف حفظ أرواح المواطنين فى المنطقة وأسست بذرة الرفض للمنهج التكفيرى فى كل محافظة صلاح الدين وانتقلت إلى كل مناطق العراق كنموذج يُحتذى لأن العراقيين بمجملهم لم يعرفوا التطرف الدينى بل كانوا على الدوام متعايشين بكافة طوائفهم خاصة طائفتيهم الرئيسيتين السنة والشيعة مع الكثير من الطرق والمناهج داخل الطائفتين وكان احتضانهم للمقاتلين وخاصة العرب بدافع مقاومة الاحتلال وهو ما منح هؤلاء المقاتلين المنتمين للقاعدة وغيرها من التنظيمات الملاذ الآمن الذى ضاعوا بعد أن فقدوه عندما اكتشف الناس حقيقتهم وطبيعة أهدافهم .

٣ - صراع السلفية

قادنى الحوار مع أبو عمر إلى البحث فى قضية الصراع بين أطراف السلفية في العراق وهو صراع عقائدي وفكري لأنهم كانوا جميعاً تياراً واحد هم «السلفية في

العراق» ، وفي عهد صدام حسين كان يعرفون بالسلفية بصورة عامة وكان يسموهم أو يعرفون في بعض المنابر بالوهابية لأن اللباس القصير واللحى الطويلة كانت تجمعهم وتميز المنتمين إلى الفكر السلفي .

ويعتبر عناصر تنظيم القاعدة أنفسهم سلفيون، إلا أن المرحلة التي تلت الاحتلال الأمريكي أفرزت اتجاهين وصار بالعراق سلفية معتدلة، وسلفيون يحاربون القاعدة، بسبب الاختلاف الفكري والمبدئي لأن السلفية المعتدلة ترى أن مقاومة المحتل الآن تؤجل بسبب عدم تكافؤ القوى مع المحتل ومن شروط القتال عندهم أن يكون هناك تكافؤ في المواد والعدة العسكرية والتكنولوجيا وغيرها ولذلك يطلق عليهم أتباع تنظيم القاعدة صفة المرجئة بمعنى أنهم يعطلون الأمور أو يرجئونها بينما يرى تنظيم القاعدة في العراق أن من أولوياته مقاتلة الاحتلال، والسلفية المعتدلة ترى عكس ذلك تماماً لأن الوقت لم يحن بعد للمقاتلة لأنهم يرون أن العراق يجب أن يحصن عقائدياً ويزول عنه الفساد، ويقولون « كيف نحارب الآن ونحن لم تكتمل عندنا العقيدة الصحيحة وهناك فساد في الأرض؟ ولهذا يجب أولاً أن يصححوا ما في الداخل ثم بعد ذلك يقاتلوا.

ولعل هذا الخلاف هو ما جعل كثير من الناس لا يفرق، بين الخطين المتضادين لدرجة العداء والاستهداف فالتيار السلفي المعتدل الذي يرى أن القتال الآن غير واجب، لكن للأسف أن النصوص لا تسعفه، بينما يرى السلفيون الآخرون وهم تنظيم القاعدة أن من أولويات عملهم هو مقاومة المحتل.

ومن الأمور الخلافية التي أدت إلى استهداف قادة السلفية المعتدلة « المرجئة» ومن والاهم خاصة أهل ناحية العلم الذين صاروا هدفا مفضلا للقتل والاختطاف هو أنهم بسطاء وليس عندهم مشكلة على الدخول بالعملية السياسية، وأيضاً شجعوا على الانخراط في الجيش والشرطة وهو ما كان تنظيم القاعدة يعتبره كفرا وأن من يعاون الاحتلال والحكومة العراقية مرتدا يجب قتله اينما وجد .

ورغم وجود حوار بين الخطين السلفيين فى بداية الاحتلال إلا أن تنظيم القاعدة خلط الأوراق وصار يقتل على الشبهة، ولا يفرق بين العراقي والمحتل وهو ما أدى إلى انقلاب الناس عليهم فى المناطق التى كانت ملاذات آمنة لهم، وصارت قطيعة وقتال بسبب استهداف الأبرياء من الناس الذين لم يقاتلوا لأنه أمر مرفوض شرعاً وعرفاً وقانوناً، وهناك أحكام الذميين والمستأمنين في العراق أو غير العراق وبعد دخول القوات الأمريكية إلى العراق حصلت لقاءات بين السلفية المعتدلة وتنظيم القاعدة ، ولم يتوصلوا إلى نتيجة ولم يقنعوا فكرياً، وبعد ذلك

حصل لقاء مسلح وكفر اتباع السلفية المعتدلة تنظيم القاعدة .. فيما كفر التنظيم أيضاً السلفية المعتدلة وحدثت مناوشات بينهم واعتداءات، لأن تنظيم القاعدة يعتبر أي شخص يخالف مبدأه أو منهجه هو ضده ويقاتله .

وقد أدى هذا الخلاف الذى لم يكن يعرفه كثيرون إلى توجيه أصابع الاتهام إلى السلفية بالمسئولية عن الضربات التي يتلقاها عناصر الجيش والشرطة وبقية القوى الأمنية بالإضافة إلى سائر المواطنين بسبب أن تنظيم القاعدة ينتمي إلى المنهج السلفي حيث يتواجد أتباع السلفية في أغلب مناطق بلاد الرافدين إلا أن السلفية المعتدلة التي تتخذ من مناطق أطراف محافظة صلاح الدين أماكن لتواجدها، لم ترفع السلاح يوماً بوجه القوات الأمريكية أو العراقية، بل على العكس من ذلك شجعت المواطنين على الدخول في سلك الشرطة والجيش والمشاركة في العملية السياسية.. حيث اندفع الكثير ممن ينتهجون التيار السلفي للعمل تحت مظلة القوات الأمنية ورفع السلاح ضد من تثور ثائرته تجاه تلك القوات بعد الكتاب الذي ألفه أبو منار العلمى شيخ السلفية والذي أجاز فيه فتاوى عديدة منها دخول السلفية في مجال القوى الأمنية وحمل السلاح .

وفي وقت كان المنهج السلفي المعتدل في العراق ميزانًا يذعن له المخالف وينضوي تحته الكثير، أصبح تهمة يتبرأ منه تنظيم القاعدة ويستهدفه بين الفينة والأخرى بسبب النهج الذي يحمله والذي يخالف التنظيم بأفكاره عندما أعلن عن عدم مشروعية مقاتلة القوات الأمريكية في الوقت الحاضر، فكانت الضربة الموجعة التي تلقاها السلفية أثناء تأديتهم صلاة الفجر في مسجد الإمام مسلم، بناحية العلم مما أدى إلى مقتل وإصابة حوالى ٢٥ شخصا بتاريخ ٢٠٠٦/٦/١٥ عندما دخلت مجموعة مسلحة بعد انتهاء صلاة الفجر مباشرة، وفتحت النار على من كانوا بالمسجد . إلا أن هذا الهجوم كان الوحيد في المنطقة التي استمرت آمنة .

٤ - المرجئه

يعرف المرجئة تاريخيا بأنهم فئة من المسلمين, خالفوا رأي الخوارج في مرتكب الكبيرة وقالوا بأن كل من آمن الإرجاء في اللغة : التأخير، وفي الاصطلاح تأخير العمل وإخراجه عن حقيقة الإيمان، قال ابن كثير في بيان سبب تسمية المرجئة بهذا الاسم: « .. قيل مرجئة لأنهم قدموا القول وأرجأوا العمل - أي أخروه » وهم أقسام وفرق متعددة مختلفة في تحديد معنى الإيمان عدّها الأشعري في المقالات اثنى عشر فرقة، وأشهرهم فرقتان:

الأولى مرجئة الفقهاء : وهم الذين يرون أن الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالقلب، لا يزيد ولا ينقص، والأعمال الصالحة ثمرات الإيمان وشرائعه، قال الإمام الطحاوي - في بيان هذا المذهب: « والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان، وجميع ما صح عن رسول الله من الشرع والبيان كله حق، والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى، ملازمة الأولى » (العقيدة الطحاوية).

الثانية مرجئة المتكلمين : وهم الجهمية ومن تابعهم من الماتريدية والأشاعرة.

يقول الفضيل بن عياض : « أهل الإرجاء - إرجاء الفقهاء - يقولون : الإيمان قول بلا عمل، وتقول الجهمية: الإيمان المعرفة بلا قول ولا عمل، ويقول أهل السنة: الإيمان المعرفة والقول والعمل » (تهذيب الآثار الطبري ١٨٢/٢)..، ويقول وكيع بن الجراح : « ليس بين كلام الجهمية والمرجئة فرق كبير ؛ قالت الجهمية: الإيمان المعرفة بالقلب ، و قال المرجئة : الإقرار باللسان « أي مع اعتقاد القلب (نفس المصدر السابق)

وقال الإمام أحمد :« الجهمية تقول إذا عرف ربه بقلبه وإن لم تعمل جوارحه، وهذا كفر؛ إبليس قد عرف ربه ، فقال : رب بما أغويتني » (الخلال اللوحة ٩٦).

وقد اختلف الباحثون في تحديد أول من أظهر مذهب مرجئة الفقهاء على أقوال، فقيل هو: ذر بن عبد الله الهمداني : وهو تابعي متعبد توفي في نهاية القرن الأول، قال إسحاق بن إبراهيم : « قلت لأبى عبد الله - يعنى الإمام أحمد -: أول من تكلم في الإيمان من هو؟ قال: يقولون: أول من تكلم فيه ذر « (مسائل الإمام أحمد لإسحاق بن إبراهيم (٢ / ١٦٢)؛ قال سلمة بن كهيل : « وصف ذر الإرجاء و هو أول من تكلم فيه، ثم قال أنى أخاف أن يتخذ هذا دينا ، فلما أتته الكتب في الآفاق ، قال: فسمعته يقول : وهل أمر غير هذا « (السنة لعبد الله بن أحمد ، ص٨١).

وقيل أن أول من قال بالإرجاء حماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة وتلميذ إبراهيم النخعي ، قال معمر كنا نأتي أبا إسحاق ، فيقول: من أين جئتم ؟ فنقول: من عند حماد ، فيقول: ما قال لكم أخو المرجئة ؟!! وعن أبي هاشم قال أتيت حماد بن أبي سليمان ، فقلت: ما هذا الرأي الذي أحدثت ولم يكن على عهد إبراهيم النخعي ؟ فقال: لو كان حيا لتابعني عليه يعني الإرجاء «. وقيل أول من أنشأ القول بالإرجاء قيس الماصر : فقد نقل الحافظ ذلك عن الأوزاعي ؛ قال: أول من تكلم في الإرجاء رجل من أهل الكوفة يقال له: قيس الماصر . تهذيب التهذيب ٤٩٠/٧. وقيل سالم الأفطس : فعن معقل بن عبيدالله الجزرى العبسي قال: « قدم علينا سالم الأفطس بالإرجاء، فعرضه فنفر منه أصحابنا نفارا شديدا، و كان

أشدهم ميمون بن مهران و عبد الكريم بن مالك ، فأما عبد الكريم فإنه عاهد الله لا يأويه و إياه سقف بيت إلا في المسجد.

مؤسس مذهب مرجئة المتكلمين : هو الجهم بن صفوان: كان رجلا من أهل الأهواء لم يجالس عالما قط، ولم يعرف بطلب العلم، وإنما جالس أهل الأهواء وفي مقدمتهم الجعد بن درهم الذي ذبحه خالد بن عبد الله القسري لزندقته ونفيه صفات الله سبحانه، وكان الجهم مع جهله خصما مجادلا، التقى جماعة من زنادقة الهند يقال لهم: « السمنية » فسألوه عن مصدر المعرفة وكانوا لا يؤمنون إلا بالمحسوس، فقالوا له: صف لنا ربك هذا الذى تعبده يا جهم ، و بأي حاسة أدركته من الحواس، أرأيته أم لمسته - أم ... الخ ؟! فمكث فترة لا يجيبهم، ثم اخترع قولا في الله أجابهم به، فقال : « هو هذا الهواء مع كل شئ وفي كل شئ و لا يخلو من شئ » (الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد ص٦٥). ولم يكن لأقوال جهم في حياته ولا بعد وفاته قبول، بل عاش مطاردا مطلوبا من ولاة الأمر حتى قتله سلم بن أحوز عامل نصر بن سيار على مرو، وقال له: « يا جهم ! إنى لست أقتلك لأنك قاتلتني، أنت عندي أحقر من ذلك، ولكني سمعتك تتكلم بكلام باطل أعطيت لله عهدا أن لا أملك إلا قتلك فقتله » ا.هـ من فتح الباري (٣٤٦/١٣) .

وتلقف أقوال جهم من بعده - سواء في الصفات أو في الإيمان - بشر المريسي شيخ المعتزلة، جاء في ترجمة بشر في البداية والنهاية : « حكي عنه أقوال شنيعة وكان مرجئيا، وإليه تنسب المريسية من المرجئة، وكان يقول : أن السجود للشمس والقمر ليس بكفر، وإنما هو علامة للكفر »

وممن تلقف مذهب جهم في الإيمان ابن كلاب أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان رأس المتكلمين بالبصرة، والإمام أبو الحسن الأشعري ، وهذان هما اللذان نشرا مذهب جهم في الإيمان، قال الإيجي في المواقف بعد أن ذكر معنى الإيمان في اللغة : « وأما في الشرع .. فهو عندنا وعليه أكثر الأئمة كالقاضي والأستاذ : التصديق للرسول فيما علم مجيئه به ضرورة، وتفصيلا فيما علم تفصيلا، وإجمالا فيما علم إجمالا « فالإيمان عند الأشعرية لا يتعدى تصديق القلب من غير إقرار لسان ولا عمل جوارح.

ومن خلال هذا الاستعراض التاريخي لما عرف باسم المرجئة نستطيع أن نتبين لماذا يرفض السلفية المعتدلة التي تدعوا إلى إرجاء مقاومة المحتل إطلاق لفظ المرجئة عليهم لأنهم كما يقولون فئة ضالة وإن إشاعة هذا الوصف وإلصاق كلمة المرجئة بهم إنما هو من فعل أعدائهم